مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 01، مارس 2022، صص: 361 ـ 374

تاريخ الاستلام(2022/02/24)تاريخ القبول (2022/03/17)تاريخ النشر (2022/03/30)

الفونيم: النشأة والمفهوم

The Phoneme: Genisis and Concept

عبد القادر دلماجي[1]، عبد الحق قاسمي[2]

[1] مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية (الجزائر)، delmadjiab@yahoo.fr

[2] مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية (الجزائر)، gashak@protonmail.com

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى عرض تاريخي لفكرة مصطلح الفونيم، من بداية الإرهاصات الأولية التي كانت عاملا أساسيا في ميلاد هذا المصطلح، إلى التطورات التي منحت المصطلح أبعادا جديدة من حيث التصوروالمفهوم، ولعل أهمية البحث تكمن في ما أحدثته نظرية الفونيم من ثورة في الدراسات اللغوية الغربية، فتعددت حولها الآراء واختلفت، بين متطرف في تأييدها والترويج لها، وبين منتقص لها متهجم عليها، إذا كيف نشأت فكرة المصطلح؟ ومن هم روادها الأو ائل؟ وكيف تطور المصطلح ضمن سياق التصورات الفكرية المختلفة للمدارس اللسانية الغربية المتعددة؟ وهل الاختلاف في تحديد مفهوم الفونيم بين المدارس اللسانية هو اختلاف جوهري أم هو اختلاف حصل فقط باختلاف نقطة الزاوية التي ينظر منها في توصيف مفهوم الفونيم؟ هذه بعض التساؤلات التي نسعى الإجابة عنها من خلال هذه الورقة البحثية. وقد توصلنا إلى بعض النتائج، أهمها، أن فكرة الفونيم وإن تعددت تصورات المدارس في تحديدها، تبقى في جوهرها مفهوما لسانيا واحدا له أثر مهم في الدراسات اللسانية.

كلمات مفتاحية: صوتيات؛ فونولوجيا؛ مدارس لسانية؛ الفونيم ، النشأة

Summary:

This research seeks to present a historical presentation to the term of phoneme, from the beginning of the initial premonitions that were a key factor in the birth of this term to the developments that gave the term new dimensions in terms of perception and concept. Perhaps the importance of the research lies in the phoneme-revolution theory in

المؤلف المرسل: عبد القادر دلماجي، الإيميل: delmadjiab@yahoo.fr

Western linguistic studies. Opinions varied around it, between an extremist in her support and promotion, and a detractor who attacked it. So how did the idea of the term originate? Who are the first pioneers? And how did the term develop within the context of the different intellectual perceptions of the various Western linguistic schools? Is the difference in defining the phoneme concept between linguistic schools a fundamental difference, or is it a difference that occurred only according to the different angle point from which the characterization of the phoneme concept is considered? These are some of the questions that we seek to answer through this research paper. We have reached some important findings. The idea of the phoneme, even if the schools' perceptions varied in its definition, in its essence, remains a single linguistic concept that has an important impact on linguistic studies
Keywords: audios, phonology, linguistic schools, phoneme,

1. مقدمة:

عندما نلقي نظرة تاريخية على الدراسات اللسانية الغربية، إلا و نصطدم بظاهرة لسانية أخذت حيزا كبيرا من الاهتمام لدى المفكرين والباحثين الغربيين، وتباينت حولها الأفكار والتصورات في تحديد مفهومها، ألا وهي فكرة مصطلح الفونيم التي لا يزال النقاش محتدما حول تحديد مفهومه، رغم كل المحاولات الكبيرة والغنية التي أضافت مجموعة من التصورات الجديدة لمفهوم الفونيم. فيمكن لمن يتتبع تاريخه أن يقف على هذه التطورات التي تدرج فيها، والاختلافات التي تشكلت حوله.

فهدفنا من هذا البحث هو استعراض تاريخي للتصورات التي طرحها المفكرون الغربيون في صياغة فكرة الفونيم، وذلك من الإرهاصات الأولية التي مهدت المناخ الفكري لميلاد فكرة مصطلح الفونيم إلى التطورات التي شكلت فيما بعد المصطلح بأبعاده الجديدة من حيث التصور والمفهوم، ولعل أهمية البحث تكمن في الإسهامات الفكرية التي أضافتها نظرية الفونيم في الدراسات اللغوية عامة وفي الدراسات اللغوية الغربية خاصة، وما أثارته من آراء متعددة، حري لكل باحث أن يطلع عليها.

إذا كيف نشأت فكرة المصطلح؟ ومن هم رواده الأوائل؟ وكيف تطور المصطلح ضمن سياق التصورات الفكرية المختلفة للمدارس اللسانية الغربية المتعددة؟ وهل الاختلاف في تحديد مفهوم الفونيم بين المدارس اللسانية هو اختلاف جوهري أم هو اختلاف حصل فقط باختلاف نقطة الزاوية التي ينظر منها في توصيف مفهوم الفونيم؟ هذه بعض التساؤلات التي نسعى الإجابة عنها من خلال هذه الورقة البحثية.

2. بديات الاشتغال على مفهوم الفونيم

حين نُقلِّب نشأة مصطلح الفونيم، يمكننا التوسع برده إلى يوم أن اُهتدي الإنسان إلى فكرة تجسيد تلك التصورات الذهنية للأصوات اللغوية إلى نماذج من الصور الخطية المكتوبة والمحسوسة[1]؛ لأن هذا التمثيل يعكس حتما أساس مصطلح الفونيم في تصور الواضع لتلك الرموز الصوتية، مثل ما وجد في التمثيل الألفبائي للسنسكريتية الذي وضع على أساس فونيمي، يرمز للوحدات الصوتية، وليس لتنوعاتها [2].

والفونيم (phonème)مصطلح ظهر في ظل الدراسات اللسانية الغربية، ولفظه منقول" عن الكلمة اليونانية (Phonema) أو (phoneme)، وهي تتألف من الكلمة(phone) التي تعني (صوتا)، واللاحقة (emat-ema) المختصة بالأسماء، وهي تعني (شيئا) أو (وحدة) [3]"، واستعمل بمعنى "الصوت ، النطق ، الشيء المنطوق ، الكلام ، اللغة"[4]، وتُرجم المصطلح إلى الثقافة اللسانية العربية، فوقع له مثل ما وقع لغيره، من تعدد في المصطلحات الدالة على المفهوم ذاته ، نذكر منها: صوت، صوتم، صوتيم، ومستصوت، وصوت مجرد، وصواته، وفونيمية، ولافظ[5]، وكلها لم يُكتب لها التداول والاستعمال مثلما كُتب لشكله المعرب (فونيم) من تداول في كتابات اللسانيين العرب.

وقد استخدم هذا المصطلح أول مرة من قبل دوفريش-ديسغنيتس (A. Dufriche-Desgenettes) سنة 1873، وذلك حين اقترحه في اجتماع الجمعية اللغوية الفرنسية عام 1873م لترجمة المصطلح الألماني sprachlaut[6]، ثم طور استعماله العالم البولندي دي كورتيناي (Jan Niecisław Baudouin de Courtenay) وتلميذه كروسزيفسكي (Mikołaj Kruszewski) خلال 1875-1895[7] كان المصطلح الذي استخدمه هذان الشخصان هو الفونيما ، الوحدة الأساسية لما أسموه الصوتيات النفسانية (*psychophonetics*) .

ومن الرواد كذلك لويس هافيت Louis Havet، ومنه استعمله فردينان دوسوسير Ferdinand de Saussure[8]، ومنهم من يعتقد أن Kruszewski تلميذ جان بودوان هو من اقترح أن يطلق على الوحدة الصوتية مصطلح فونيم، وقد فضل، من خلال بحث نشره عام 1880م يتعلق بالمفردات السلافية، استعمال المصطلح فونيم على المصطلح وحدة صوتية، كما أنه أسهم في التمييز بين مصطلح الفونيم ومصطلح ألفون، ولكن هناك دلائل تشير إلى أن أول من استخدم هذا المصطلح هو العالم دوسوسير، وذلك لوجود تعريف لهذا المصطلح ضمن معجم اللغة الفرنسية المتداول في النحو الفرنسي منذ عام 1873م، وهذه هي نفس المرحلة التي ظهر فيها اللغوي السويسري دوسوسير، والذي يعتبر حديثه عن الفونيم من أقدم ما بين أيدينا من بحوث علم اللغة العام[9]. ومع ذلك نقول إنّ Jan Baudouin يظل الرائد الأول الذي استطاع أن يحدد

معالم فكرة الفونيم بشكل دقيق وعميق، ذلك أنه كان واعيا بأهمية طبيعة هذا التصور والأثر الذي سيحدثه في الدراسات اللسانية[10].

أما دانيال جونز (Daniel Jones) فكان أول لغوي في العالم الغربي من استخدم مصطلح الصوت بمعناه الحالي ، مستخدمًا الكلمة في مقالته "التركيب الصوتي للغة Sechuana". كما تم تطوير مفهوم الصوت في أعمال نيكولاي تروبيتزكوي وآخرين من مدرسة براغ (خلال الأعوام 1926-1935) ، وفي أعمال البنيويين مثل فرديناند دي سوسور وإدوارد سابير وليونارد بلومفيلد.

كما ظهرت الملامح الأساسية لفكرة نظرية الفونيم على يد بعض الرواد مثل العالم البولندي (1784-1839) Jozef Mrozinski، والعالم السويسري (1846-1929) Jost Winteler [11] ، الذي أدرك الفرق بين الصوت بكونه وحدة نمطية مجردة، وبكونه حدثا نطقيا واقعيا، بينما تكاد تجمع الروايات على أن الفضل في تبلور فكرة الفونيم يعود إلى العالم البولندي جان بادوين كورتنيني الذي شكّل النواة الأولى لهذا المفهوم، وهو المكتشف للطبيعة اللغوية للفونيم، وذلك في مقال نشره عام (1869م) بعنوان Changement du S(ss)en CH en. polonais [12] ، إذ أشار فيه إلى أن أصوات اللغة لها وظيفة لغوية تمييزية بين التنوعات النطقية التي تشكل الكلمات، كما أنه قد استطاع في كتابه الأول الذي نشره في عام (1873م) أن يُقدّم بشكل أوضح مضمون تصوره لنظرية الفونيم[13].

بينما في المقابل نرصد في الدراسات اللسانية بعض الأقوال التي تنسب ظهور مصطلح الفونيم لكروفيزسكي عام (1879م)، وهو أحد تلامذة بادوين، ومنها ما تشير إلى أن بادوين نفسه قد صرح بهذا في مقال له، نشره عام(1893م) [14] في حين نستشف، من قول العالم مونان، أنّه يكاد يؤكد هذه الحقيقة: "لقد تكوّن مفهوم الفونيم لدى بادوين بشكل واضح أثناء إقامته في كازان Kazan وخلال لقائه بكروزيوسكي"[15] (مونان، د ت). إلاّ أن جاكبسون يعتقد بخصوصية هذا المفهوم عند بادوين، ويرى أن تلميذه ساهم في تطوير نظرية أستاذه لمفهوم الفونيم، رغم أنه لم يستطع أن يتخلص من التفسير النفسي لمفهوم الفونيم الذي جاء به أستاذه بادوين[16]. وكل هذه الآراء تُعدّ في مجموعها الإرهاصات الأولية التي مهدت بشكل كبير في إتمام معالم نظرية مصطلح الفونيم فيما بعد.

وبالفعل لم تستقر فكرة الفونيم في حيزها الذي نشأت فيه، ولا ظلت كما هي في بساطة بداياتها، بل عرفت تطورا كبيرا فيما بعد، مثلها في ذلك مثل جميع الأفكار في دورة حياتها، ففي عام 1911م ولأول مرة، تتداول مدرسة لندن فكرة الفونيم، ثم في عام 1916م عرفت انجلترا فكرة مصطلح الفونيم، وكان ذلك بفضل العالم Daniel Jones الذي أخذها بدوره عن العالم ساربا L.Scerba (1880-1944) المنتسب إلى مدرسة لننغراد، وقد استعمل جونز مصطلح الفونيم في

محاضرة عامة ألقاها عام 1917، ولكن الجمعية الفلولوجية Philological Society أسقطت من هذه المحاضرة الجزء الخاص بتصوره حول الفونيم حين نشرت محاضر جلساتها[17]، كان جونز من الشخصيات الأكثر تأثيرًا في تطوير الصوتيات في بريطانيا. كان لسنوات عديدة أستاذًا للصوتيات في يونيفرسيتي كوليدج بلندن. وهناك عمل على العديد من لغات العالم وعلى نظرية الفونيم والصوتيات، ولا سيما مخططه لصوتيات اللغة الإنجليزية وقاموس نطق اللغة الإنجليزية.

أما في المدرسة الأمريكية فكان سابير (Edward sapir) أول لغوي أمريكي يكشف عن اهتمامه بالمصطلح فونيم، وذلك من خلال بعض التلميحات التي دونها في كتابه الشهير"اللغة" (Language (1921، وبدون أن يُضَمّن فيه مصطلح الفونيم، ليعود في بحثه عن الفونيم الذي نشره عام 1933م فيذكر الأساس الفونيمي بوضوح. أما الاهتمام الكبير بنظرية الفونيم فلم يبدأ إلا منذ ظهور كتاب Bloomfield المسمّى Language(1933م) [18].

3. عرض لنظرية الفونيم في تصورات المدارس اللسانية:

إنّ اكتشاف مصطلح الفونيم في الدراسات اللسانية الغربية كان نتيجة التوجه العلمي في مناهجها التحليلية الصارمة والدقيقة في دراسة اللغات البشرية، ثم إفادتها من علم الأصوات التجريبي[19] الذي ساهم بشكل كبير في كشف الغطاء عن أهم الحقائق العلمية للصوت اللغوي. ويُعدّ اكتشاف مصطلح الفونيم ثورة في الدرس اللغوي الحديث مما أثاره من إشكالات فكرية حول حقيقة الوحدة الصوتية، والتي كانت منطلقا لكثير من الباحثين في تحديد مصطلح الفونيم، مما أدى إلى شيوع نظرية الفونيم في الدراسات اللسانية الحديثة، وزيادة تفاعل العلماء مع تلك المفاهيم المتعلقة بهذه النّظرية، محاولين إثراء ومناقشة تلك الفكرة، انطلاقا مما يعتقدونه من مذاهب فكرية، وحسب ما يحملونه من توجهات فلسفية معتمدة في مذاهب المدارس التي ينتمون إليها. إذا كيف عالجت المدارس اللسانية قضية مصطلح الفونيم، وما هي الصور والمعالم التي شخصت به كل مدرسة نظرية الفونيم في ذلك العصر.

4. مصطلح الفونيم في المدرسة العقلية mentalistic (النفسانية psychological):

في تصور هذه المدرسة يُعد الفونيم الصوت النموذجي المجرد المتمثل في الذاكرة الجماعية لأصحاب تلك اللغة، والذي يحاول دائما المتكلم أن يلفظه، ولكنه في كل محاولة يخفق في تحقيق هذا النموذج، إما لصعوبة تحقيق الصورة الصوتية النموذجية ذاتها باستمرار، أو بسبب نفوذ قوة تدافع الأصوات المجاورة، يقول تمام حسان عن تصور هذه المدرسة لفكرة الفونيم: "يعتبرون الفونيم صوتا مفردا، له تجريد ذهني، أو صورة ذهنية، يستحضرها المتكلم إلى عقله بالإرادة ويحاول بلا وعي أن ينطقها في الكلام، فينجح في بعض الأحوال في تحقيق صورة الصوت بالنطق، ولكنه في أحوال يخفق، فيستحضر أقرب الأصوات إلى هذه الصورة"[20].

ونفس التصور لقضية الفونيم نجده عند Sapir رائد المدرسة الأمريكية، فهو يرى أن الفونيم صوت مثالي، ويقول في توصيفه، في مقال نشره تحت عنوان أنماط الأصوات في اللغة: "هذه الأصوات المثالية التي يكونها إحساس المرء بالعلاقات المقصودة بين الأصوات الموضوعية أكثر تحققا في نظر المتكلم الفطري من الأصوات الموضوعية نفسها"[21]، بمعنى أن أصحاب السليقة اللغوية لهم حدس شعوري يهب لهم القدرة على التعرف على فونيمات لغتهم أفضل من عالم صوتي شديد التدقيق في التفاصيل[22]، فالفونيم في نظر سابير يندرج ضمن الوحدات التي يحكمها النظام الداخلي المثالي للغة؛ لأنه يفرق بين المستوى الصوتي الآلي للغة وبين المستوى الوظيفي لها[23].

كما أن الصوتيات التوليدية تأثرت بشكل كبير بسابير. حيث يتم التحليل الصوتي عندهم بغرض التركيب النحوي للكلام الشفوي، وبعد ذلك فقط ينتقل إلى خصائصه الصوتية، التي تشكل السمات المميزة للصوت، والتي هي بدورها تمنح الكلام في تمثيله الصوتي معنى.[24]

ونفس الشيء حدث به تروبتسكوي (N. S. Troubetzkoy) في تصوره لمفهوم الفونيم في بدايات أمره، إذ كان يرى أنه الصورة العقلية للصوت أو هو أفكار صوتية، إلاّ أنه بعد فترة من البحث عدل هذا العالِم عن تصوره الأول للفونيم (الإدراك النفسي للفونيم)، وتبنى مفهوما جديدا للفونيم، وهو المفهوم اللغوي، أو قل المفهوم الوظيفي، لذلك يوصف هذا العالِم بأنه المؤسِّس الأول لعلم الأصوات الوظيفي، فهو يرى أن الفونيم فكرة لغوية لا نفسية، ذلك أننا لا نستطيع تحديده عن طريق الأصوات المنطوقة؛ بل يحدَّد في ضوء وظيفته التركيبية في اللغة[25]. ومن الذين لهم نفس التصور النفسي لمفهوم الفونيم نجد N.van wijk الذي يرى، في بحث نشره عام 1936، أن:" فونيمات اللغة تشكل فئة من العناصر اللغوية المتمثلة في عقل كل أعضاء المجتمع الكلامي"[26].

وطبعا يظل العالمان Jan Baudouin وتلميذه Scerba من الأوائل الذين عرضوا هذا التصور التجريدي للفونيم في كتاباتهم، فحقيقة الفونيم في نظر بودوان ما هو إلاّ "الصورة العقلية للصوت"[27]، بمعنى أن الفونيم هو مجرد صورة ذهنية واحدة في نفسه مهما اختلف نفسيا أو فيزيائيا، ومن هنا يمكننا القول بأن بودوان استطاع أن يميز بين علمين من علوم الأصوات هما: علم الأصوات العضوي(الفيزيولوجي)، وعلم الأصوات النفسي. وعلى نفس الشاكلة يقول تلميذه بأن : "الأصوات لا وجود لها، وإنما تحيى بأمثلتها، وصورها في العقل"، أي أن الأصوات التي ننتجها على اختلافاتها النوعية إنما تقع داخل حدود معينة، التي يمكن لأفراد المجتمع المتكلمين أن يميزوها، بمعنى أن لا تخرج عن إطار الألوفون لذلك الفونيم.

ومن حاملي هذا التصور لفكرة الفونيم، ومن أتباع المدرسة العقلية نجد العالم الأكراني Cyzevskyj و(Benni)، الذي اقترح مصطلحا جديدا مرادفا للفونيم، وهو المصطلحpsychophone وهو مصطلح يعكس من خلال لفظه العلاقة النفسية أو العقلية بالصوت[28].

غير أن هذه الفكرة المتعلقة بمفهوم الفونيم التي طرحتها المدرسة العقلية لم تحظ بالإجماع من طرف الباحثين، بل لاقت بعض الاعتراضات والانتقادات من قبل الباحثين، فيرى جاكبسون مثلا أن مفهوم الفونيم في طرح المدرسة العقلية يظل غامضا غير واضح، ذلك أنها أقحمت المنهج النفسي،في بيان وشرح تصورها لفكرة الفونيم، وهو منهج بعيد عن حقل اللسانيات[29]، ولا يتوافق في وظيفته مع طبيعة الظاهرة الصوتية، ولا يستطيع تفسيرها. كما يرى تروبتسكوي، في اعتراضه على التصور التجريدي للفونيم، بأن الفونيم ما هو إلاّ " علامات مميزة، لا يمكن تعريفها إلاّ بالرجوع إلى وظيفتها في تركيب كل لغة على حدتها"[30]، ومن الصعب من الناحية الإجرائية أن نحدد المعالم الصوتية التي تمثل هذا الصوت النموذجي.

5. الفونيم في المدرسة المادية: من بين مَنْ تبنوا النظرة المادية أو الفيزيائية physical لفكرة الفونيم، دانيال جونز الذي يُعد رائدها، فهو يرى أن الفونيم عائلة من الأصوات التي لا يمكن لأحد أعضائها أن يحل في كلمة في نفس الموقع الذي يقع فيه الآخر[31]، فالفونيم في نظره يمثل مجموعة من الأصوات التي لا يمكن للناطق أن يكرر أحدها، وأنها محكومة بالسياق، وهذه الأصوات المفردة ليست فونيمات، مادامت تنطق بصورة واحدة دائما[32]، فالرمز الكتابي للفونيم، في تصوره، يمثل مجموعة من الصور المنطوقة التي أطلق عليها مصطلح الصوت المزدوج(Phone Dia)، وهي العائلة من الأصوات التي يمكنها أن تتبادل الأماكن دون تعديل في معنى الكلمة، مثل صوتي السين في كلمة بسطة، وبصطة[33]، أما الصور الصوتية المختلفة لصوت النون فهي التي تمثل في مجموعها الفونيم؛ لأن السياقات الموقعية المختلفة للنون تفرض وجود صور صوتية متعددة لا يمكنها أن تتبادل نفس المواقع، فهو يتبنى نظرية الأصوات المجردة التي تقرر أن الفونيم حقيقة مجردة للعائلة الصوتية التي تنشأ من السمات المشتركة التي يسفر عنها أداء الأصوات لعدة مرات، وهو بهذا الطرح، أي تعريفه للفونيم بعلاقاته بالصور الصوتية، يقع في خطأ يقول عبد الصبور شاهين[34].

أما دي سوسير فهو يرى أن الفونيم عنصر صوتي في اللغة المنطوقة له جانبان يحددان طبيعته وهما: جانب فيزيولوجي عضوي وجانب أكوستيكي سمعي، فهو يقول بأنّ الذين يعتمدون في وصفهم للصوت اللغوي على جانبه العضوي فقط، يعدّ وصفا غير كاف وغير تام ومنهجا غير صحيح، لأنّ في نظره أن الجانب السمعي يمثل الصفة الموضوعية الحقيقية للسمع[35] وعليه يمكننا القول إن دوسوسير يصنف في حقيقة الأمر، حسب تصوره لطبيعة الفونيم، إلى المدرسة

العقلية، من جهة اعتقاده أن الفونيم له صورة سمعية التي لا تتجلى إلا في خيال المتكلم أو السامع، وإلى المدرسة المادية من وجهة نظره أن الفونيم ينشأ ابتداء من الحركة الفيزيولوجية لأعضاء آلة النطق؛ لأنّ دوسوسير في نظره أن الفونيم يعود إلى النظام الذهني من القواعد المختزن في الذاكرة الجماعية للغوية، أما جانبه الفيزيولوجي العضوي هو المجسد لتلك القيمة الذهنية للفونيم في الأداء النطقي.

ومن بين أهم الاعتراضات على تصور مفهوم الفونيم لهذه المدرسة، أنه يصعب كثيرا في بعض الأحيان التحقق من وجود تشابه أم لا؛ لأن الصوت ذو طبيعة مركبة، فهو قد يكون مشابها لصوت آخر من ناحية ومخالفا من ناحية أخرى وعلى سبيل المثال: هل الوقفي غير النفسي المهموس أكثر شبها بمقابله الوقفي غير النفسي المجهور، أو بمقابله الوقفي النفسي المهموس. فمن المستحيل أن نحدد درجة الخلاف التي تمنع صوتين من انتسابهما لفونيم واحد(36).

6. في المدرسة الوظيفية: أبرز رواد هذه المدرسة هما:تروبتسكوي، ومدرسة براغ على العموم، الذين يرون أن الفونيم هو أصغر وحدة مميزة للكلمات في المعنى، ولا يمكن تجزئتها إلى عناصر صوتية أصغر من الوجهة اللغوية، ومع ذلك تعددت وجهات نظر المنتمين إلى هذه المدرسة في تحديد مفهوم الفونيم، فبعضهم يرى أن الفونيم هو مفهوم وظيفي من حيث أنه أصغر وحدة لسانية دالة، من هؤلاءF.S.Wingfield الذي يعتقد أن الفونيم هو :" مجموعة من أصوات الكلام متماثلة تقريبا، وبشكل كاف لأن تعالج كوحدة لأغراض ألفبائية"(37) ومعظمهم يفسر مفهوم الفونيم على أنه وحدة وظيفية لها القدرة على التفريق بين معاني الوحدات، مثل الذي ذكره ترنكا في تحديده لمفهوم الفونيم، على أنه:" كل صوت قادر على إيجاد تغيير دلالي"(38) بمعنى أن الفونيم هو كل كيان صوتي له القدرة على التفريق بين معاني الكلمات. وهناك من أشار في تعريفه للفونيم إلى وظيفته في التركيب من حيث له القدرة على التمييز بين كلماته، من بين هؤلاء Trubetzkoy الذي تراجع في مرحلة متأخرة عن المفهوم السيكولوجي للفونيم، واعتبره مفهوما وظيفيا لغويا(39). ولا تبتعد كثيرا مدرسة لينجراد في نظرتها إلى مفهوم الفونيم عن نظرة تروبزكوي، إذ أنها تحدد مفهوم الفونيم على أنه: "النماذج الصوتية التي لها قدرة على تمييز الكلمات وأشكالها"(40)، ويعد Trubetzkoy هو من بلور نتائج أعمال حلقة براغ في كتابه مبادئ الفونولوجيا، ثم يأتي بعد ذلك أندري مارتيني ليواصل العمل البحثي في تطوير وصقل مفاهيم هذه النظرية، تمثلت نتائج البحث فيها بما يعرف في الدراسات اللسانية الحديثة بالتقطيع المزدوج.

أما vachek فقد حاول أن يُفصّل أكثر فيما ما يتعلق بوظيفة الفونيم، فيقول إن الفونيم في أي بناء تركيبي يؤدي وظيفة مزدوجة، إحداهما إيجابية والأخرى سلبية، وظيفة إيجابية من حيث هو جزء من بناء الكلمة فيعطي للكلمة معناها الذاتي، وسلبية من حيث يجعل الكلمة

لها استقلاليتها عن بقية الكلمات الأخرى[41]، فالحرف قاف في كلمة قال هو جزء مع بقية الحروف من بناء هذه الكلمة وفي اكتسابها المعنى الخاص بها، أما الوظيفة السلبية فتتمثل في تمايز الكلمة عن بقية الكلمات مثل: سال، وكال، وحال الأخرى[42]

7. **النظرية التجريدية:** ويمثلها العالم الأمريكي توادال الذي يحدد الفونيم على أنه وحدة مجردة خيالية، فيقول:"لا وجود له لا من الناحية العضوية، ولا من الناحية النفسية، وإنما هي وحدة خرافية تجريدية" [43]،فهو بهذا يلغي جميع الأحكام المسبقة السيكولوجية حول نظرية الفونيم، كما أنه ينفي عن الفونيم أن يكون واقعا ماديا[44]، ونفس التصور نجده عند هلمسيلف، فأصحاب هذه المدرسة يرون أن الفونيمات كيانات تجريدية مستقلة تماما عن الخصائص الصوتية المرتبطة بها[45].

ومن أنصار هذه النظرية العالم الياباني Jimbo، والعالم الإنجليزي Palmer، وكذلك Jones في مراحله الأخيرة من صياغته لنظرية الفونيم[46]، وأيضا العالم الأمريكي (سابير) الذي قال: "إن هذه الأصوات المثالية التي يكونها الإحساس الفطري بوجود علاقات مهمة بين الأصوات الحقيقية أكثر واقعية وتحققا بالنسبة للمتكلم العادي من الأصوات الحقيقية نفسها"[47] ، فالمراد هنا أن الصوت المتصور لا يمكن تكراره في النطق بنفس المواصفات، ومع ذلك أفراد الأسرة اللغوية الواحدة تستطيع أن تدرك بحسها بوجود علاقة انتماء لنفس الفونيم المتخيل.

والواقع أن التجريد في مفاهيم هذه المدرسة يتلخص في وجود مستويين من التجريد، المستوى الأول يتمثل في الانطباع الذهني لتلك السمات المشتركة الكثيرة الموجودة في بعض الأصوات، وهو الذي يُعدّ في نظرها صوتا تجريديا، أما المستوى الثاني من التجريد فيتحقق لما يتمكن المرء من استخلاص عائلة كاملة من هذه الأصوات التجريدية في شكل صورة عامة، وهذه الأصوات التجريدية في نظرها هي التي تمثل الفونيمات في هذا المستوى[48]، وقد رفض تروبستكوي هذه النظرة في اعتبار وجود مستويين لفعل التجريد الواحد، وقال بأنّ "التجريد على المستوى الأول يتم على أساس تماثل أكوستيكي نطقي في حين أنه على المستوى الثاني على أساس صلة الأصوات ببيئاتها"[49]، وكذلك يرى أنّ الأصوات الحقيقية إنما تحيا مادامت تحققات للفونيمات، وعلى هذا فالمستوى الأول من التجريد هو الثاني[50].

8. **النظرية الاجتماعية:** أسس لابوف (Labov) وييغر (Yeager) وشتاينر (Steiner)، ما يسمى اليوم بالصوتيات الاجتماعية، وذلك من خلال اهتمامهم بدراسة الاختلاف والتغيير في حروف العلة للغة الإنجليزية الأمريكية. وكان مصطلح الصوتيات الاجتماعية مرتبطًا إلى حد كبير بتحليل الصوائت الأكوستيكية ثم تطور ليصير الآن أوسع مجالا ليتضمن التحليل الآلي لأنواع أخرى من أصوات الكلام، إلا أن التحليل الأكوستيكي لتباين وتغيير الصوائت يظل محور تركيزه[51].

ينظر أصحاب هذه النظرية إلى الفونيم بوصفه وحدة صوتية لغوية له وظيفة اجتماعية، ويتشكل من مجموع أصوات ثانوية يطلق عليها مصطلح الألوفونات، وهي تنوعات نطقية لذات الفونيم، حددها D.Bolinger بقوله :"مظهر مادي متباين للفونيم"[52]، وانطلاقا من هذا التصور لنظرية الفونيم يقول أصحاب هذه المدرسة أنه يمكن تحليله إلى وحدات فونيمية(ألوفونات)، أي أن الفونيم عنصر صوتي قابل للتحليل، ذلك أن الألوفونات هي صور صوتية ثانوية للفونيم الناتجة بسبب المواقع السياقية المتعددة للفونيم، لذلك أطلق بعضهم على مصطلح الألوفون المتغير السياقي، فالنون مثلا هي فونيم في المورفيم نام ولكنه يختلف عنه بعض الشيء النون في كلمة عنك، وهكذا جميع الفونيمات حين تختلف مواقعها في التركيب اللغوي.

9. الفونيم في النظرية التوليدية التحويلية : بشكل عام، يشير مفهوم التوليد إلى النظرية القائلة بأن كل اللغات البشرية تتولد على شكل بُنى لغوية يتم توصيلها بالدماغ. فعندما يكتسب الشخص لغته الأصلية، يتم تنشيط البنى التي تنطبق على تلك اللغة المعينة[53]. وكذلك هو الأمر في نظرية الصوتيات التوليدية، حيث يكتسب الشخص أيضًا قواعد معينة حول الأصوات التي يمكن دمجها وبأي طرق. وفي هذه النظرية فإن الفونولوجيا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالصوتيات، وإن كانت الصوتيات تشير إلى الأصوات التي يتم إنتاجها بالفعل داخل اللغة، بدلاً من القواعد التي تحكم الأصوات.

بدأ اهتمام التوليديين بالفونيم منذ جهود نعوم تشومسكي لوصف المورفونيمات (morphophonemics) في اللغة العبرية الحديثة[54]، وكانت الأعمال التي قام نعوم تشومسكي (Chomsky) وموريس هال (Morris Halle) [55] في الصوتيات التوليدية هي تحديد القواعد الصوتية في اللغات الحية. وذلك بغرض تطوير أنظمة صوتية خوارزمية واضحة، والتي تُوَلِّد الأشكال السطحية للغة[56]، على سبيل المثال ، غالبًا ما يتم تطبيق البادئة "in-" على الكلمة الجذرية لنفيها. ومع ذلك، في بعض الحالات، ينتج عن الجمع بين هذه البادئة والأصوات الأولية للجذر مجموعة من الأصوات التي تنتهك قواعد الصوتيات الإنجليزية، لذلك يتم تعديل البادئة أو الجذر بطريقة ما. كلمة "material" ، على سبيل المثال ، تصبح "immaterial" بالبادئة "im-" بدلاً من "in-" ، لأن نطق [inma] غير مستساغ.

فالمدرسة التوليدية لا تنظر إلى الفونيم إلا بوصفه وحدة صوتية لها موقع في السلسلة الكلامية، فإما أن تسمح العلاقة الجوارية بأن يظل الفونيم محتفظا بجميع صفاته الصوتية، وإما أن تؤدي إلى تغير صفة أو أكثر فيه أو إلى تغيير ذاته[57] ، تلك العلاقة التي هي جزء من نظام صوتي يوجد في أذهان المتكلمين بتلك اللغة.

10. خاتمة:

من خلال هذه الورقة البحثية سجلنا مجموعة من الملاحظات نوجزها في النقاط الآتية:

- إنّ اكتشاف مصطلح الفونيم في الدراسات اللسانية الغربية كان نتيجة التوجه العلمي في مناهجها التحليلية الصارمة والدقيقة في دراسة اللغات البشرية، ثم إفادتها من علم الأصوات التجريبي، الذي ساهم بشكل كبير في كشف الغطاء عن أهم الحقائق العلمية للصوت اللغوي. ويُعدّ اكتشاف مصطلح الفونيم ثورة في الدرس اللغوي الحديث مما أثاره من إشكالات فكرية حول حقيقة الوحدة الصوتية، والتي كانت منطلقا لكثير من الباحثين في تحديد مصطلح الفونيم، مما أدى إلى شيوع نظرية الفونيم في الدراسات اللسانية الحديثة.

- لا يعدو الخلاف، في تحديد مفهوم الفونيم، إلا في الأساس الذي يقوم عليه، أهو أساس عضوي أم نطقي، أم سمعي أم وظيفي، أم نفسي، أم مزيج من بعضها أم من جميعها، لذلك تباينت الخلفيات الفكرية والمنهجية فانعكس ذلك على نظرة المدارس إلى حقيقة الفونيم. ومع ذلك يظل الفونيم مصطلحا فونولوجيا، له أهميته في الدراسات اللغوية عامة وفي الدراسات الصوتية خاصة.

مراجع البحث وإحالاته:

---

(1) بهنساوي حسام، الدراسات الصوتية عند علماء العرب والدرس الصوتي الحديث، زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2005م، ص125.

(2) مختار عمر، دراسات الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، مصر،1991. ص 169.

(3) القماطي ,محمد منصف .الأصوات ووظائفها، كلية التربية طرابلس .1986 ,ص131.

(4) Liddell, H.G. & Scott, R. (1940). A Greek-English Lexicon. revised and augmented throughout by Sir Henry Stuart Jones. with the assistance of. Roderick McKenzie. Oxford: Clarendon Press.

(5) غالب، فاضل المطلبي. في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المدّ العربية، دائرة الشؤون الثقافية، 1984.

(6) دبة الطيب، مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية ابستمولوجية، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين،2001،ص171.

(7) Jones, Daniel (1957), "The History and Meaning of the Term 'Phoneme'"Le Maître Phonétique, supplement (reprinted in E. Fudge (ed) Phonology, Penguin), 35 (72): 1–20,

(8) مختار عمر، دراسات الصوت اللغوي، ص169.

(9) برتيل مالمبرج، علم الأصوات، (تر: عبد الصبور شاهين) مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، (دت)، ص230.

(10) مختار عمر، المرجع السابق، ص169.

(11)مختار عمر، نفس المصدر، ص168.

(12)حسان ,تمام .مناهج البحث في اللغة، الأنجلومصرية، القاهرة، مصر، 1990، ص129-128 .

(13)مختار عمر، دراسات الصوت اللغوي، ص169.

(14) الشايب ,فوزي .محاضرات في اللسانيات، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 1999ص111.

(15) مونان جورج، علم اللغة في القرن العشرين،(تر:عزاوي نجيب) وزارة التربية والتعليم، سوريا (د.ت)،ص30.

(16) جاكسبون رومان، ست محاضرات في الصوت والمعنى، (تر: حسن ناظم، وآخرون)، المركز الثقافي العربي، لبنان بيروت،1994، ص68،67،64.

(17) مختار أحمد عمر، دراسات الصوت اللغوي، 171.

(18) مختار عمر، دراسات الصوت اللغوي، 170.

(19)عبد الجليل ,عبد القادر .علم اللسانيات الحديث، دار صفاء للنشر، عمان، الأردن، 2002، ص303 .

(20)حسان ,تمام .مناهج البحث في اللغة، الأنجلومصرية، مصر، 1990، ص، 129-128 .

(21)حسان ,تمام .مناهج البحث في اللغة، ص، 129-128 .

(22) دبة الطيب، مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية ابستمولوجية، ص241.

(23) دبة الطيب، مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية ابستمولوجية، ص241.

(24)Dresher, Elan and Harry van der Hulst. (2022). Leading idea in Phonology.pdf. In: Elan Dresher and Harry van der Hulst (eds.) (2022). The Oxford History of Phonology. Oxford: Oxford University Press.

(25) حسان ,تمام .مناهج البحث في اللغة، ص، 139.

(26)شاهين ,عبد الصبور .في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة .ط 1980، ص 129-130.

(27)مختار أحمد عمر، دراسات الصوت اللغوي، ص 176.

(28) مختار أحمد عمر، نفس المرجع، 169.

(29)جاكسبون رومان، ست محاضرات في الصوت والمعنى، 1994، ص64

(30)حسان ,تمام .مناهج البحث في اللغة، ص، 130.

(31)مختار أحمد عمر، دراسات الصوت اللغوي، 177.

(32) شاهين ,عبد الصبور .في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة .ط 1980، ص، 130-129 .

(33) شاهين ,عبد الصبور .في علم اللغة العام، ، ص، 133.

(34) شاهين ,عبد الصبور .في علم اللغة العام، ، ص، 133.

(35) شاهين ,عبد الصبور .في علم اللغة العام، ص117.

(36)مختار أحمد عمر، دراسات الصوت اللغوي، 178.

(37)مختار أحمد عمر، نفس المصدر، 179.

(38)مختار أحمد عمر، نفس المصدر ، 179.

(39)مختار أحمد عمر، نفس المصدر ، 180.

(40)مختار أحمد عمر، نفس المصدر ، 180.

(41)مختار أحمد عمر، نفس المصدر ، 180.

(42) مختار أحمد عمر، نفس المصدر ، 180.

(43) حسان ,تمام .مناهج البحث في اللغة، ص، 130.

(44) شاهين ,عبد الصبور .في علم اللغة العام، ص251.

(45)مختار أحمد عمر، دراسة الصوت اللغوي ، ص 180.

(46)مختار أحمد عمر، نفس المصدر ، ص 180.

(47)حسان ,تمام .مناهج البحث في اللغة، ص، 129.

(48)مختار أحمد عمر، دراسة الصوت اللغوي ، ص 181.

(49) مختار أحمد عمر، دراسة الصوت اللغوي ، ص 181.

(50) عبد الجليل ,عبد القادر .علم اللسانيات الحديث، ص 307 .

(51) Baranowski, Maciej. 2013. Sociophonetics, in : The Oxford Handbook of Sociolinguistics, Edited by Robert Bayley, Richard Cameron, and Ceil Lucas, P25.

(52) مختار أحمد عمر، دراسة الصوت اللغوي ، ص 182.

(53) Kisseberth, Charles ; Kenstowicz, Michael. Generative Phonology: Description and Theory, Academic Press, January 1979Language 57(2), p 2-4

(54) Chomsky, Noam, 1951. Morphophonemics of Modern Hebrew. Master's thesis, Philadelphia: University of Pennsylvania, P9.

(55) من بين هذه الأعمال يمكن الإحالة إلى:

- Halle, Morris. 1962. Phonology in generative grammar. Word 18.54–72.
- Halle, Morris. 1964. On the bases of phonology. In The Structure of Language, ed. by Jerry A. Fodor Jerrold J. Katz, 604–612. Englewood Cliffs: PrenticeHall.
- Chomsky, Noam. 1964. Current Issues in Linguistic Theory. The Hague: Mouton.
- Chomsky, Noam, Morris Halle. 1965. Some controversial questions in phonological theory. Journal of Linguistics 1.97–138
- Chomsky, Noam, Morris Halle. 1968. The Sound Pattern of English. New York: Harper and Row

(56) Goldsmith, John A., Laks Bernard. 2012. Generative Phonology: its origins, its principles, and its successors, Cambridge University Press, Cambridge, p. 7..

(57) دبة الطيب، مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية ابستمولوجية، ص241.

قائمة مراجع البحث وإحالاته:

1. برتيل مالمبرج، علم الأصوات، (تر: عبد الصبور شاهين) مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، (دت).

2. بهنساوي حسام، الدراسات الصوتية عند علماء العرب والدرس الصوتي الحديث، زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2005م،

3. جاكسبون رومان، ست محاضرات في الصوت والمعنى، (تر: حسن ناظم، وآخرون)، المركز الثقافي العربي، لبنان بيروت،1994

4. حسان ,تمام .مناهج البحث في اللغة، الأنجلومصرية، القاهرة، مصر، 1990.

5. دبة الطيب، مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية ابستمولوجية، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين،2001

6. الشايب ,فوزي .محاضرات في اللسانيات، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 1999.

7. شاهين ,عبد الصبور .في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة .ط 1980.

8. عبد الجليل عبد القادر ، علم اللسانيات الحديث دار صفاء للنشر، عمان، الأردن، 2002.

9. غالب، فاضل المطلبي. في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المدّ العربية، دائرة الشؤون الثقافية، 1984.

10. القماطي ,محمد منصف .الأصوات ووظائفها، كلية التربية طرابلس.1986 ,

11. مختار عمر، دراسات الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، مصر،1991..

12. مونان جورج، علم اللغة في القرن العشرين،(تر:عزاوي نجيب) وزارة التربية والتعليم، سوريا (د.ت)،.

13. ciolinguistics, Edited by Robert Bayley, Richard Cameron, and Ceil Lucas.

14. Chomsky, Noam, 1951. Morphophonemics of Modern Hebrew. Master's thesis, Philadelphia: University of Pennsylvania.

15. Dresher, Elan and Harry van der Hulst. (2022). Leading idea in Phonology.pdf. In: Elan Dresher and Harry van der Hulst (eds.) (2022). The Oxford History of Phonology. Oxford: Oxford University Press.

16. Goldsmith, John A., Laks Bernard. 2012. Generative Phonology: its origins, its principles, and its successors, Cambridge University Press, Cambridge.

17. Jones, Daniel (1957), "The History and Meaning of the Term 'Phoneme'", Le Maître Phonétique, Le Maître Phonétique, supplement (reprinted in E. Fudge (ed) Phonology, Penguin), 35 (72): 1–20.

18. Kisseberth, Charles ; Kenstowicz, Michael. Generative Phonology: Description and Theory, Academic Press, January 1979Language 57(2).

19. Liddell, H.G. & Scott, R. (1940). A Greek-English Lexicon. revised and augmented throughout by Sir Henry Stuart Jones. with the assistance of. Roderick McKenzie. Oxford: Clarendon Press.